

## استراتيجيات التأثير في الخطاب الشعري الصوفي

## Strategies for influencing Sufi poetic discourse.

أ. سارة مسعد\*

أ. صلاح يوسف عبد القادر\*

تاريخ الاستلام: 2020-10-26 تاريخ القبول: 2021-01-05

**ملخص:** يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على موضوع استراتيجيات التأثير في الخطاب الشعري الصوفي انطلاقاً من حقيقة مفادها أنّ لغة هذا الأخير يكتنفها الإيحاء والرمز، وتتجنب الوضوح كما تبتعد عن الأسلوب المباشر وكأنّها تدعو المتلقي للبحث فيها لكشف غموضها، وفك رموزها. وبالتالي فهو خطاب خصب للبحث والتحليل للكشف عن خبايا وأسرار الفكر الصوفي؛ الذي يدّعي أصحابه القناعة والزهد وحبهم للأخرة، وإهمال المتع والملذات ونبت كل ما هو دنيوي مادي، لهذا لجؤوا إلى أساليب مناسبة قصد التأثير واستمالة المتلقي، والتعبير عن جوهر طريقتهم، بغض النظر عن نواياهم، وقد وجدوا في الشعر الوسيلة الأمثل للتعبير عن تجاربهم الوجدانية.

**كلمات مفتاحية:** استراتيجيّة؛ تأثير؛ استمالة؛ متلقي؛ الشعر صوفي.

**Abstract:** the present research focuses on the strategies of influence in the poetic discourse of sufism. considering the symbolic and semantic aspect of language of this discourse that avoids clearance and direct stile within this discourse, the reader is called to analyse and decipher the content and secrets of discourse in sufism whose followers pretend contentment and

\*جامعة مولود معمري تيزي\_ وّرو، الجزائر، البريد الإلكتروني: Saramessad14@gmail.com

(المؤلف المرسل).

\*جامعة مولود معمري تيوِي\_ وّرو، الجزائر، البريد الإلكتروني: Dr.salahawad.1947@gmail.com

prefer the hereafter. They also neglect joys and pleasures of life. They adopted styles to attract the reader (receiver) and to express the essence of their trend regardless their intentions. Poetry was the best way to express their feelings and emotions.

**Keywords:** poetic discourse, strategy, effect, attraction reader (receiver), sufic poetry.

**1. مقدمة:** اختلف العلماء في زمن ظهور الصوفية، وتنازعا في أهدافها ولكنهم أجمعوا على تباين طبقات الصوفية وتشعبها إلى طوائف لكل طائفة علم من الأعلام أمثال رابعة العدوية وبشر الحافي والسدي والجنيدي وإبراهيم بن الأدهم وغيرهم، والمتتبع لحياة أتقى أعلام الصوفية يجدها مخالفة للسنة النبوية الشريفة ناهيك عن دورهم. أما جانبهم الثقافي والعلمي فقد تركز على الولائم والحضرات والشعر الوجداني الغارق في حب الذات الإلهية وحب الرسول عليه السلام، وهذا ما جعل كبار علماء السنة يردون باطلهم بردود مفحمة في مواطن عدة وأزمة متعاقبة، ورغم كل هذا مازالت أشعارهم وثقافتهم منتشرة في مختلف بقاع العالم، فكيف تمكن الشعر الصوفي من الحفاظ على وجوده؟ وهل تمكن فعلا من إيصال معانيه الغامضة إلى الناس عامة وإلى مرديهم خاصة؟ وما مدى تأثير الشعر الصوفي على مختلف فئات المجتمع؟

**2. الخطاب وعناصره:** جاءت مادة خطب في لسان العرب "الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن. قال الليث: إن الخطبة مصدر الخطيب، لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر." <sup>1</sup> وبهذا فإن الخطاب يتطلب اشتراك عناصر تتمثل في:

**2.1 المرسل:** "هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، بغرض تحقيق هدف فيه،" <sup>2</sup> فهو الذي يحدثه؛ ويعمل على شحنه بالمعلومات والأخبار والمحتويات اللازمة ثم إرساله إلى المتلقي بهدف التأثير فيه أو إفهامه.

**2.2 المرسل إليه:** أو المستقبل وهو طرف الخطاب الثاني ومحور العملية التواصليّة، يلعب دورا في توجيه المرسل عند اختياره لأدواته اللغويّة وصياغته لخطابه، "فقد أشار اللغويون القدامى في التراث العربي إلى ذلك، إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي، مثل المستوى النحوي، من حيث التذكير والتأنيث والعدد وتجسيده بعلامة لغويّة، وهكذا يصبح المتلقي حاضرا في ذهن الملقى عند إنتاج الخطاب، سواء أكان حضورا عينيا أم استحضارا ذهنيًا... وهو ما يسهم في حركيّة الخطاب ويسهم في قدرة المرسل التّويعيّة ويمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجيّة خطابه،"<sup>3</sup> حسب مستوى المتلقي الثقافي والتّعليمي والاجتماعي والعاطفي.

**2.3 اللّغة:** وهي أداة للتّواصل بين الأفراد والمجتمعات، ونقل المعارف ومختلف الأنشطة الفكرية والفنيّة والعلميّة، لذا فهي تعكس أفكارهم وتوجهاتهم فاللّغة كما حدّدها ابن جنّي هي "أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم."<sup>4</sup> أي أنّها وحدات كلاميّة صوتيّة ترصف إلى جانب بعضها لتشكل الكلمات والجمل ومن ثمّ الخطاب.

**3. الخطاب الشعري والتّصوّف:** ترد لفظة (خطاب) كثيرا مقترنة بصفات كثيرة مثل الخطاب السياسي، الخطاب الديني، الخطاب التّعليمي وما يهمنّا في هذا المقام الخطاب الشعري، بما يحمله من أسس أدبيّة وبلاغيّة تميّزه عن سائر أنواع الخطابات الأخرى، فعندما ننظر إلى الشّعر تستوقفنا عدّة مصطلحات قد تدخل ضمن الماهيّة الشعريّة والتي تضمّ الصّورة الخياليّة والشّعريّة والإيقاع والأسلوب، وذلك لاعتماد النّقاد عليها في مقارنة النّص الشعري. وجاء في المعجم العربي الأساس "الشّعر ج. أشعار، كلام موزون مقفى يعتمد على التّخييل والتّأثير لنظم الشّعر، والشّاعريّة مصدر صناعي موهبة قول الشّعر يتمنّع هذا الرّجل بشاعريّة فيّاضة، وشعري منسوب إلى الشّعر"<sup>5</sup> ويضيف الجاحظ إلى هذا المفهوم نظرة جديدة حين أشار إلى عنصر أساس في الشّعر وهو الصّورة، حينما ذكر مصطلح التّصوير في تعريفه للشّعر يقول: "إنّما الشّعر صناعة وضرب من التّصوير"<sup>6</sup> فللخطاب الشعري خصائص تمكّن الشّاعر من تصوير وتجسيد المعنويات فيستغلّها للوصول إلى تبليغ أفكاره ووجدانه. وقد وجد الصّوفيون في الشّعر ما لم يجدوه في أنواع الأداب الأخرى من وسائل التّعبير عن تجاربهم الوجدانيّة وادعائهم حبّ لله تعالى فهم يسعون حسب

زعمهم إلى الارتقاء بمحبتهم لله، فكانت فلسفتهم مبنية على إلغاء العقل وجعله في مرتبة ثانية بعد القلب، وجعل الحواس والمشاعر وسيلتهم للوصول إلى الله، فجانبوا العقل وشددوا على الوجدان في الحب. فالشعر والتصوف حقلان متقاربان وإن شئت فقل هما تجربتان متمازجتان إذ إن "هناك وشائج قريى تجمع بين التصوف والفن بشكل عام وبينه وبين الشعر بشكل خاص، هذه الشائج تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة والوجدان"<sup>7</sup> ومن هنا نلمس تقارب التجربة الشعرية كونها لغة الشعور الفياض النابع من القلب تعبر عن مشاعر وليدة تجربة حياة، والتجربة الصوفية كونها نابعة عن عقيدة تتجه إلى نفس الأغراض الشعرية.

**4. مفهوم الاستراتيجية التخاطبية:** يرى بعض المختصين أنها: "استعمال اللغة بكيفيات منظمة ومتناسقة تتناسب مع مقتضيات السياق تجسدها كفاءة المرسل التداولية... فيغدو الخطاب عندها مجموعة من الانتظامات التي تعبر عن التفكير النظري والإنجاز اللغوي الذي يرى المرسل أنه الأمثل من بين الإمكانيات التي تتيحها اللغة في جميع مستوياتها، وذلك للارتفاع بأداء القول وتحقيق ما يريده في خطابه."<sup>8</sup> إذن هي سبيل يسلكه المرسل في خطابه للوصول إلى الغرض أو الهدف المنشود المتمثل في التبليغ للمخاطب أو التأثير فيه وإقناعه. ويعتبر السياق وكل ما يتصل به من ظروف الموجه في اختيار المناسب منها، إذ يتحدد من بعدين "بعد داخلي يتعلق باللغة وتراكيبها من حيث موقع الكلمة بين أخواتها، والهيئة التي اختلفت فيها الكلمات مع بعضها، ومكان هذه الائتلافات والتراكيب من الموضوع الجامع لها... والبعد الخارجي يتمثل في الظروف والخلفيات المحيطة بالنص، سواء منها ما يتصل بالمخاطب أم المخاطب، وكذلك البيئة الزمنية والمكانية النابع منها النص، (الخطاب) وكذلك يشمل الأسس الفكرية والحياتية القائمة وراءه"<sup>9</sup> ومن هنا يمكن اعتبار أن الخطاب لم يعد علامات وبنيات داخلية مغلقة، بل بنية ودلالة وتركيب ووظيفة سياقية قبل كل شيء. بينما الخطاب الصوفي هو: "شكل من أشكال التعبير اللغوي عن تجارب عرفانية وجدانية، وهو ضرب من الكتابة الإبداعية له خصوصياته الفنية والجمالية."<sup>10</sup> أي أنه كتابة تتضمن مدلولات مرتبطة بمقامات وأحوال الصوفيين المختلفة، ولكل من هذه المقامات والأحوال مصطلحات مناسبة لها. ويختلف الخطاب

الصّوفي عن غيره خاصّة في لغة الشّعْر من حيث مصطلحاته وأساليبه ومعانيه، لذا فهو يعتمد استراتيجيات خطابية لا تخرج عن هذه المقومات.

**5. معايير تصنيف استراتيجيات الخطاب:** تتعدّد معايير التّصنيف، ولكن يمكن إجمالها في ثلاثة معايير هامة وهي: معيار اجتماعي يتمثّل في معيار العلاقات التّخاطبيّة، ومعيار لغوي، وهو معيار شكل لغة الخطاب، ومعيار هدف الخطاب.

**4.1 معيار العلاقات التّخاطبيّة:** إنّ العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر المؤثّرة في تحديد إستراتيجيّة الخطاب المناسبة واختيارها، فالمرسل يختار خطابه وفقا لدواعي السّياق العام الذي يراعى فيه البناء النّفسي لمخاطبه "فالأفراد يختلفون بشكل كبير في بنائهم النّفسي، وبالتالي فإنّهم يختلفون في طبيعة الإدراك التي ترجع إلى أنّ لكلّ فرد تنظيمًا متميِّزًا من المعتقدات والاتّجاهات، والقيم والحاجات،"<sup>11</sup>. ويعود هذا الأمر إلى تنشّته الاجتماعيّة التي أكسبته مفاهيم جديدة من خلال تواجده في بيئة معيّنة، واللّغة واحدة من هذه المفاهيم المكتسبة فهي تمثّل نمطا مهما من الأنماط النّقافيّة التي تكوّن ثقافة مجتمع ما، فهي ليست أداة للتّواصل فحسب؛ بل هي وعاء للنّقافة والأفكار أي: "لا يمكن تحديد مفردات اللّغة ودلالاتها تحديدا دقيقا إلا بمعرفة البيئة النّقافيّة لهذه المفردات."<sup>12</sup> وعليه فإنّ المرسل لا يحتاج إلى معرفة لغة المستقبل فقط ليتواصل معه ويحقّق الهدف من خطابه وإنّما يجدر به الاطّلاع على تكوينه النّقافي والاجتماعي والمعرفي، لأنّه غالبا ما تميل الفئة الاجتماعيّة الواحدة إلى اختيار نفس المضمون وإبداء نفس الاستجابة إلى حدّ كبير بناء على اعتبارات ثقافيّة دينيّة ولغويّة ونفسيّة ناتجة عن تنشّتهم الاجتماعيّة المشتركة لأنها "الأرضيّة التي يعتمدان عليها في إنجاز التّواصل إذ ينطلق المرسل من عناصرها السّياقيّة في إنتاج خطابه، كما يعول عليها المرسل إليه في تأويله وذلك حتى يتمكّن من الإفهام والفهم أو الإقناع والافتتاح"<sup>13</sup>. هذا ما يجب على معدّ الخطاب معرفته كونه يوجه خطابه إلى جمهور معين بهدف معيّن من خلال استعماله نوعا معيّنًا من الكلمات والجمل والدّلالات، وكذلك تؤثر طبيعة العلاقة بينه وبين مخاطبيه بشكل مباشر في اختيار خطابه بحكمها "علاقة اجتماعيّة أو وظيفيّة، فكّما كانت العلاقة رسميّة، كّما كان خطابه أكثر مباشرة على قصده، في حين كّما

كانت العلاقة حميمة كلما ابتعد المرسل بخطابه عن الدلالة المباشرة<sup>14</sup>. ومنه فإنّ الإستراتيجية الخطابية تختلف بناء على نوع العلاقة. إذن العلاقة بين المتخاطبين والمعرفة المشتركة تمنحهما قدرا من الافتراضات المسبقة التي تؤثر في سير الخطاب واختيار الإستراتيجية المناسبة له، ويمكن ترتيب هذه الافتراضات حسب "ليتش" بناء على محورين رئيسيين هما: "محور العلاقات الأفقية التي تتمثل في: خصائص الدين والجنس والسن وخصائص المهنة والعرق والجنسية، وخصائص الحالات الاجتماعية والعلاقات العاطفية. ومحور العلاقات العمودية التي تتراوح قريبا أو بعدا أو علوا أو دنوا ما يجعل الناس ينتمون إلى سلم تراتبي، إذ يقع كلّ طرف من طرفي الخطاب في إحدى درجاته، سواء كان سلما اجتماعيا أم وظيفيا،"<sup>15</sup> فهذان المحوران يتمازجان ليشكلا الأرضية التي ينطلق منها المرسل في توجيه خطابه بما يتناسب مع هذه العلاقات والعناصر السياقية كالزمان والمكان وطريقة تفكير الناس واحتياجاتهم ونظام لغتهم، ويسهم في درجة تحقيق الهدف من الخطاب عن طريق فهم المستقبل للرسالة الموجهة إليه أو التأثير بها، وهو ما يصطلح عليه بتوخي الاستراتيجية الخطابية. لم يكن الخطاب الشعري الصوفي كغيره من النصوص الأدبية إنّما كان متعلّقا بإيديولوجية دينية جعلت من الحبّ الإلهي موضوعا وهدفا له، فأصبح أرباب الصوفية يتكلمون عن علاقتهم بالله وحبهم له بعيدا عما تقتضيه ثقافة المتلقي الإسلامية من ارتباط حبّ الله بما يرجوه من رضاه في الدنيا ونيل الأجر والثواب في الآخرة وتجنّب العذاب والخوف من النار يقول الحلاج:

أريدك لا أريدك للنّواب	ولكنّي أريدك للعقاب
فكلّ مآربي قد نلت منها	سوى ملذوذ وجدي بالعذاب <sup>16</sup>

وإذا كانت وظيفة أي خطاب تخضع إلى معيار الإفادة الذي هو أهمّ قوانين الخطاب؛ فإنّ هذا يضع المتلقي في خانة بعيدة عن التفاعل الإيجابي، وهذا ما يفسّر ربّما لجوء الصوفية إلى الرمزية في شعرهم واستعارة بعض الألفاظ والمعاني من نصوص الشعر في الثقافة العربية، وضبطها وفق نظام إيقاعي يكون له الأثر في

المتلقي استجابة لمبدأ مبني في الثقافة العربية على حتمية الارتباط بين الحب والشعر.

**4.2 المعيار اللغوي:** ينبغي التفريق بين المعنى المباشر للغة ومفرداتها وبين الاستعمال الفعلي للغة في واقع الخطاب والذي يفرضه استراتيجية المرسل الخطابية. فإما أن يستعمل المرسل في خطابه استراتيجية مباشرة، فيوظف كلامه مباشرة للدلالة على قصده، وإما أن يبتعد بخطابه عن الدلالة المباشرة فيكون المعنى مستلزماً من شكل الخطاب، يتدخل سياق التلّفظ في كشف وتحديد معناه الحقيقي لأنّ الكلام ضربان كما يقول الجرجاني "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تعبر عن (زيد) مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: (خرج زيد) وبالانطلاق عن عمرو فقلت: (عمرو منطلق)، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتّمثيل.<sup>17</sup> هذا إشارة إلى أنّ شكل الخطاب ليس مقصوراً للدلالة على قصد المرسل فقد يتطابق مع قصده وقد لا يتطابق، وهو ما يتيح للمرسل إستراتيجيتين خطابيتين؛ الأولى مباشرة والثانية غير مباشرة، وعليه اختيار الاستراتيجية التي تتلاءم وسياق تلفظه للتعبير عن قصده، وبهذا يتضح أنّ لصورة الخطاب أكثر من قوة إنجازية "فالاستراتيجية المباشرة هي التي يتوخاها ليدلّ على قصده، أو ينجز بها فعله اللغوي من خلال دلالاته الحرفية، في حين يتجاوز دلالة الخطاب الحرفية في الاستراتيجية التلميحية وتتجسد كل من هاتين الاستراتيجيتين من خلال أدوات لغوية، وآليات معينة يعمد المرسل إلى انتقائها وتوظيفها.<sup>18</sup> بما يخدم هدفه من الموضوع، ويبقى على المستقبل الكشف عنها عند تأويله للخطاب، وقد درج اللغويون على عدّ السمات الصورية وهي: "الصرفية والتركيبية والتنغيمية معياراً للتمييز بين ما هو حرفي وما هو مستلزم،"<sup>19</sup> أي أنّ استعمال اللغة في أحد مستوياتها الصرفية والتركيبية والصوتية قد يخرجها عن مقتضاها الأصلي إلى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض الحقيقي. نلاحظ أنّ شعراء الصوفية اعتمدوا مجموعة من الآليات اللغوية "فأتوا في شعرهم بغرر المعاني، وروائع

الخيال، وبدائع الصور، وجميل التشبيهات ولطيف المجازات<sup>20</sup> وربما سياق التجربة التي كانت امتدادا "وتحوّلا للشعر الذيني الإسلامي والغزل العذري المتصوّف الهائم في مسارج الجمال الروحي وكان قسم منه تصعيدا لشعر الخمریات"<sup>21</sup> كانت مدعاة لهذه اللغة التي غالبا ما طبعت بسمة الرمزية، ولعل هذا يعود إلى إيمان الصوفية بأن سعة التجربة الصوفية الوجدانية لا يمكن أن تحيط بها اللغة التقريرية المباشرة بقدر ما تحتويها لغة الإيحاء والرمز.

**4.3 معيار هدف الخطاب:** يهدف المرسل من وراء خطابه إلى تحقيق غاية معينة، مهما كان نوع الخطاب، والتي تختلف حسب الموضوع المعالج، ولذلك فإن الإستراتيجية الخطابية تتنوع تبعا لذلك الهدف، من حيث الأدوات والأساليب اللغوية المناسبة لتحقيقه فالهدف يؤثر في إنتاج الملفوظات، لأنه من عناصر السياق الأكثر أهمية و"يتكوّن من مستويين، نفعي وكلي، فالمستوى النفعي يقع خارج الخطاب، وهو الغاية الفعلية له، أما المستوى الكلي فيتجسد في الفعل اللغوي الذي يمارسه المرسل من خلال عملية التألف بالخطاب، بغض النظر عما إذا نجح في تحقيق الهدف النفعي، أم لا. وهو الخطوة الضرورية التي يتوصّل بها المرسل إلى تحقيق الهدف الأول"<sup>22</sup> وهذا ما يجعل المستوى الكلي أولى في تصنيف الاستراتيجيات الخطابية لعدة أسباب:

- ✓ "يتّصف بأنه عام، فقد يحقّق به المرسل أكثر من هدف نفعي وهذا ما يجعل منه معيارا لتسمية الاستراتيجية باسمه؛
- ✓ إنّ المرسل يُعدّ استعمال الاستراتيجية حسب هدف الخطاب لأنه يبتغي تحقيق ذلك الهدف في خطابه، وعليه فإنّه يوظّف اللغة جاهدا حسب ما يتناسب مع السياق حتى وإن كان لا يملك تحقيق الهدف النفعي؛
- ✓ إنّ المرسل لا يصرّح بهدف الخطاب الذي يريد تحقيقه إلّا نادرا، حيث "ينجزه عبر استراتيجية تتكامل فيها آليات كثيرة تسعى إلى توظيفها بواسطة كفاءته التداولية التي يستثمرها"<sup>23</sup>. تعدّ اللغة من بين أهمّ هذه الآليات فهي بشكل عام كلّما كان الهدف المراد من الخطاب واضحا ومحدّدا سهّل ذلك على المرسل صياغة خطابه بما يحقّق الهدف من الخطاب ويترك الأثر الإيجابي لدى المخاطبين، وكلّما كان المرسل ملما



بمخاطبه ويعرف احتياجاته ومتطلباته ورغباته ومشاكله وما يشغل ذهنه من أحداث الساعة والواقع المعيش ساعده ذلك على اختيار استراتيجيته والنجاح في تحقيق هدفه.

**5. نماذج استراتيجيات التأثير في الخطاب الشعري الصوفي:** إن المرسل عندما يبدأ في التخطيط للاتصال، فإنه يسعى إلى استخدام الوسائل الملائمة التي ينقل بها إلى متلقيه فكره ومشاعره وآراءه ويؤثر فيهم في شكل رسالة، فإذا كان التأثير يعني إحداث تغييرات في سلوك المتلقي كان يقصدها المرسل، فإنه لا يخرج عن "واحدة من ثلاث:

✓ إما خلق اتجاهات جديدة؛

✓ أو دعم اتجاهات موجودة؛

✓ أو تغيير اتجاهات موجودة.<sup>24</sup>

ونحن بذلك نلجأ في كل مرة إلى إتباع إستراتيجية خطابية بناء على نوع الأثر الذي نسعى إلى تحقيقه ونوع علاقته بالمخاطب، ولا يمكن أن تخرج هذه الاستراتيجيات عن أربعة أنواع: إما تضامنية أو توجيهية أو تلميحية أو إقناعية نوضحها كالآتي:

### 5.1 الاستراتيجية التضامنية: يلجأ المرسل في الخطاب إلى اعتماد استراتيجيات

تحقق عملية التخاطب بينه وبين جمهوره وتختلف الاستراتيجية المتبعة في ذلك باختلاف أهداف التخاطب، فقد يكون الهدف منه إقامة علاقة مع المرسل إليه فيعتمد بذلك المرسل على استراتيجية تحقق له هذا الهدف وتكون لها ميزات وآليات تخدم هذا الهدف ويتميز الخطاب في هذه الحال بنوع من المرونة والتأدب وتسمى الاستراتيجية المتبعة حينها بالاستراتيجية التضامنية، حيث "يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما."<sup>25</sup> وتتجسد هذه الاستراتيجية "من خلال علامات لغوية معينة"<sup>26</sup> كالضمائر وأسماء الإشارة وعبارات التودد التي تقرب بينه وبين مخاطبه، أو تؤسس لعلاقة بينهما. وكما أشرنا سالفا فإن هناك مجموعة من العناصر الاجتماعية التي تسهم في اختيار هذا النوع من الاستراتيجيات في الخطاب، كالعلاقة القائمة بين المرسل ومستقبله، سواء في محورها العمودي (السلطوي) أم

محورها الأفقي كبعد اجتماعي تضامني، وعليه "يتبلور عدد من العناصر الداعية لاستعمالها منها:

- ✓ مدى التشابه / الاختلاف الاجتماعي؛
- ✓ مدى تكرار الاتصال؛
- ✓ مدى امتداد المعرفة الشخصية؛
- ✓ درجة التألف، أو كيفية معرفة طرفي الخطاب لكلّ منهم؛
- ✓ مدى الشعور بتطابق المزاج أو الهدف أو التفكير؛
- ✓ الأثر الإيجابي/ السلبي.<sup>27</sup>

فالمرسِل في الخطاب الشعري الصوفي يهدف إلى بناء علاقة حميمة مع المتلقي، لذا يلجأ إلى هذه الإستراتيجية لتحقيق ذلك التقارب الذي يحمل المتلقي على الاطلاع على التصوّف وإتباعه أي دعم التّوجه الصّوفي والابتعاد عن غيره من التّوجّهات، فالمخاطب كلّما شعر بأنّ المرسل يظهر مشاعر إيجابية نحوه كلّما كان هذا الأخير أقدر على التأثير فيه وإقناعه بأفكاره، كذلك يميل الأفراد إلى التفاعل مع من يماثلونهم في المستوى الاجتماعي ونمط الحياة فيشعرون أنّهم يتحدثون نيابة عنهم ويفكّرون في حاجاتهم فلا ينحصر دور الخطاب عندها في التّبليغ فقط إنّما يتجاوزها إلى تأسيس علاقات حميمة لأنّه "إذا انبنى الكلام على علاقة لفظية، فينبغي أن تكون تابعة للعلاقة التّخاطبية ولا أدلّ على ذلك من أنّ اللفظ المخاطب به سوف يتحدّد لا بالمدلول الموضوع له والمحفوظ في المعاجم، إنّما بالقصد الذي يكون للمتكلّم منه عند النّطق به والذي يدعو المستمع إلى الدّخول في تعقّبه مقاميا لا إلى تحقيق حدّه معجميا،"<sup>28</sup> ولاسيما الخطاب الصّوفي الذي يتّسم بالرمزية، فالتعامل معه معجميا يؤدي إلى الابتعاد عن مقاصده وعدم إدراك مفاهيمه الحقيقية، لأنّ لغته تهتم وترتبط ببواطن الأشياء وليس بظواهرها، وهو ما تكشف عنه الاستراتيجية التّضامنية من خلال وسائلها المختلفة ويمكن تقسيم هذه الوسائل إلى "قسمين رئيسين هما: \_ الأدوات، وهي تلك الموجودة في المعجم اللّغوي، مثل الإشارات عموما؛

\_ الآليات، وهي ذلك الشكل الخطابي الذي يختاره المرسل لينتج خطابه من خلاله، مثل اللهجة والتعجب والطرفة... ومن المسلم به أنّ هذه الآليات لا تتجلى إلا من خلال أدوات لغوية، وعليه فالأداة اللغوية هي عماد الخطاب<sup>29</sup> في المقام الأول. "ويتجلى مدى التضامن غالباً في تعابير القرب أو البعد والدخول في الجماعة مقابل الخروج منها... ويمكن الاعتماد في تصنيف العلامات اللغوية ومعرفة أوارها على ما يمكن أن نسميه بالنماذج الأصول، وهذه النماذج تسيّر وفقاً لما تقتضيه معايير العلاقة الأصل بين الطرفين، وهي عدم توقّر أي علاقة، أو أنّ العلاقة الأصل هي علاقة السّلطة التي تتحو بالخطاب نحو الرّسمية أكثر منه نحو التضامنية... وخروج المرسل عن هذه الأصول هو علامة على استحسانه التلقظ بالخطاب بالاستراتيجية التضامنية على غيرها من استراتيجيات الخطاب.<sup>30</sup> فالأصل مثلاً في استعمال ضمير المتكلم نحن يكون إمّا للمتكلم المفرد المعظم نفسه، أو للجماعة هذا في أصل استعماله، ومن جهة أخرى "يمكن استعماله على نحو تداولي بوصفها دلالة على التضامن فيما وضعت له، وفي غير ما وضعت له، فلا يؤول استعمال الضمائر للإشارة إلى مراجع غير مراجعها التي وضعت لها في النحو العربي على أنّه خطأ فهو من العلامات اللغوية التي يستعملها المرسل للتعبير عن قصده في التضامن مع المرسل إليه،"<sup>31</sup> والذي يتّضح من خلال سياق الكلام ويأتي استعمال هذا الضمير في الخطاب الصوفي في سياقات متعدّدة تعكس بوضوح الوضع الذي يريد الصوفي بلوغه، والذي يصطلح عليه بالفناء وهو "حال عارض يعترض السالك أثناء سيره في المجاهدات والرياضات، وتنقله في الأحوال والمقامات وفيه يغيب عن شهوده حتى لا يستشعر بالمحسوسات ولا بالأغيار؛ نتيجة لشهوده حقيقة الوجود الكلي،"<sup>32</sup> أي فناء الصفات البشرية وطغيان صفات الكمال، فالفكر الصوفي يبني على عقيدة الحلولية أي أنّ الله يحل بالمخلوقات، وهو نوع من الشطح يتم نتيجة الوجد حيث يكون الصوفي في حال سكر فيندم فيها شعوره وغالباً ما ينطق عن الذات الإلهية بصيغة المتكلم وهو وضع يتطلّب درجة عالية من الإخلاص والصبر في نظرهم، ولا يحصل للإنسان إلا إذا واطب على العبادة والصّلاح فالعلاقة هنا علاقة خاصّة يفترض الصوفي أنّها علاقة قوية ورفيعة لذا يلجأ إلى التعبير عنها

من خلال الضمير المتكلم نحن لييدي قربه من الله ويختصر المسافة بينهما وكذا ترقعه عن الصفات البشرية، وفي هذا يقول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدننا
نحن مذ كنا على عهد الهوى	تضرب الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرتي أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا
روحه روحي وروحي روحه	من رأى روحين حلت بدننا <sup>33</sup>

ويقوم "المتصوفة علاقتهم بالله على أساس ينزع إلى المباشرة وتجاوز الوسائط حتى وساطة الوعي بالمفهوم المتعارف عليه"<sup>34</sup> فهم يقرّون بدور الخيال واللّوعي في الوصول إلى المعرفة، وهو ما يفسّر تعبير الحلاج عما بلغه من محبة بالانتقال بين ضميري المتكلم، وهذا يعكس منهج المتصوفة في التفكير والذي يعتبرون فيه الحبّ طريقاً إلى المعرفة، ولا يتأتى لهم ذلك إلا من علاقة التقارب بينهم وبين الله والتي تسمح لهم ببلوغ عالمهم الخاص والوصول إلى الحقيقة المطلقة. يقول أبو مدين التلمساني في خمريته:

أدرها لنا صرفاً ودع مزجها عتاً	فنحن أناس لا نرى المزج مذ كنا
وغنّ لنا فالوقت قد طاب باسمها	لأننا إليها قد رحلنا بها عتاً
عرفنا بها كلّ الوجود ولم نزل	إلى أن بها كلّ المعارف أنكرنا
هي الخمر لم تعرف بكرم يخصّها	ولم تجلها راح ولم تعرف الدنا
لها كلّ روح تعرف العهد عهدها	وفي كلّ قلب جاهل للسوى معنى
حضرنا وغبنا عند دور كؤوسها	وعدنا كأننا لا حضرنا ولا غبنا
بدت لنا في كلّ شيء إشارة	وما احتجبت إلا بأنفسنا عتاً
فلا تطيق الأفهام تعبير كنهها	ولكنها لاذت بالطافها الحسنى
نصحتك لا تقصد سوى باب حانها	فمن وجد الأعلى لا يطلب الأدنى <sup>35</sup>

يتضح هنا أنّ المقصود بالخمر هو الحب " فالشاعر يسكر عند مطالعته الجمال الإلهي ومشاهدة تجلياته في الأعيان فتصيبه الدهشة والغبطة والهيمن وكلها أحوال يغيب فيها العقل، فتفضي إلى العوالم الروحية"<sup>36</sup>. فالصوفيون بهذا الأسلوب لا

يقصون المتلقي كونه طرفاً ثالثاً في العملية التواصليّة، بل يسعون إلى فرض منهجهم الفكري وخلق أتباع لطريقتهم في الحياة "فلا شك أنّ التّصوّف كان هو المعنى في الكتابة الصّوفيّة، ولقد عبّروا عنه بالطريقة وهو اللفظ الذي دلّوا به على الطّريق إلى الله، والتي هي بهذا المعنى أقرب إلى الموقف من الحياة والسّعي نحو عالم خاص هو عالم الشّعور".<sup>37</sup> وهو الجسر الذي وضعه الشّاعر بينه وبين متلقيه ليعبر به إلى التّصوّف، فيدعوه إلى قصد بابه ولبّه الذي هو الحب الإلهي. كذلك يشير الصّوفي من خلال توظيف ضمير المتكلم نحن إلى مركزه ومكانته التي يفترضها في الطّريقة الصّوفيّة، فهو وإن كان يهدف إلى استمالة المتلقي وكسب تأييده إلاّ أنّه يلجأ إلى التّعبير عن ذاته باستعمال ضمير الجمع، للتأثير عليه بسلطته غير المباشرة كونه العارف الذي عاش التجربة بكلّ وجوهها، وهو ما يشير أيضاً إلى الطّريقة الصّوفيّة إذ يعتبرون أنّه لا بد لمريد الطّريقة من شيخ يتّبعه فالشيخ مربّب وطاعته واجبة، وهو ما يقودنا إلى استراتيجية أخرى في الخطاب الشّعري الصّوفي وهي الاستراتيجية التّوجيهيّة التي يتّبعتها الصّوفي في خطابه مع مرديده.

**5.2 الاستراتيجية التّوجيهيّة: إنّ المرسل في هذا المقام يلجأ \_ باعتبار سلطته المعنويّة الروحيّة فهو العارف بالطّريقة \_ إلى التأثير على المتلقي من خلال الاستراتيجية التّوجيهيّة، التي يعود سبب اختيارها حسب بعض الدّارسين إلى "إصرار المرسل على تبليغ قصده من وراء الخطاب، وكذا توجيه المرسل إليه من خلال النّصح والإرشاد والتّحذير، وهذه الأفعال لا تقتضي استعمال المرونة في الخطاب كما أنّه يودّ (المرسل) باستعماله لهذه الاستراتيجية أن يفرض قيда على المرسل إليه بشكل أو بآخر، وإن كان قيدا بسيطاً وأن يمارس فضولاً خطايا عليه أو توجيهها لمصلحته بنفعه من جهة، وبإبعاده عن الضّرر من جهة أخرى،"<sup>38</sup> وهذا النّوع من الخطاب قد يكون نوعاً من التّدخل والضّغط على المرسل إليه يدعوه إلى تبني التّوجه الصّوفي وفي هذا الصّدق يقول ابن الفارض:**

نصحتك علما بالهوى والذي أرى	مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيدا فمت به	شهيدا وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به	ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

تمسك بأذيال الهوى وأخلع الحيا	وخلّ سبيل الناسكين وإن جأوا
وقل لقتيل الحبّ وفيت حقه	وللمدعي هيهات ما الكحل الكحل <sup>39</sup>

فالشاعر هنا يوجه المتلقي من خلال نصحه لترك مخالفته في الحبّ الإلهي من خلال توظيف أسلوب الأمر (فمت، تمسك، خلّ، قل) وهو أسلوب يكون استعماله نابعا من علاقة سلطوية يتمتع بها المرسل على حساب المرسل إليه وهو ما يكفل نجاح أهداف الخطاب "ولإعطاء الخطاب سلطة المرسل وإضفاء المشروعية عليه فإنه يتضمّن الضمائر التي تحيل على المرسل وما يتمتع به من سلطة، سواء كانت الضمائر ظاهرة أم مضمرة، كإحالة على ذاته الاجتماعية<sup>40</sup> وما أعطى الخطاب سلطة الشاعر هنا اشتماله على ضمير ظاهر يعود عليه في قوله (مخالفتي) يبيّن مكانته في المذهب، والإحالة إلى المحبوب بالضمير الغائب الهاء (حبّه) كسلطة معنوية أخرى يمارسها على المتلقي. "تدرّج قوّة أفعال التوجيه طبقا لدرجة السلطنة ووجودها من عدمها، وهذا ما يجعل أفعال التوجيه تتخذ وصفا أو تصنيفا معينا مثل أفعال الأمر والنصح،... الخ"<sup>41</sup> فأفعال الأمر تتناسب مع السلطنة المطلقة أو في أعلى درجاتها، والنصح مثلا عندما تقل درجة السلطنة إلى سلطة معنوية فقط كتلك التي يتمتع بها الأئمة ورجال الدين ومن هنا جاء التدرج في استغلال هذه الإمكانيات التخاطبية عند الشاعر من النصح (نصحتك) إلى الأمر لأجل توجيه المرسل إليه إلى مصلحته بنفعه أو إبعاد الضرر عنه. ويتم اعتماد هذه الاستراتيجية بناء على معرفة مسبقة بالمرسل إليه، حيث صنّف العلماء المرسل إليه إلى: "مرسل إليه متخيل، وهنا يكون المرسل على معرفة مستقيمة بالمرسل إليه، ويمتاز الخطاب في هذه الحالة بالعموم والديمومة، والمناسبة لكلّ وقت. أمّا الصنّف الثاني فهو المرسل إليه الحاضر عند التلقظ بالخطاب، وهنا قد يكون الخطاب أو التوجيه مقتصرًا عليه، والسبب في ذلك ضيق السياق الذي يدور فيه الخطاب، إذ تدخل فيه سمات الفرد الشخصية، والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب<sup>42</sup>، والشاعر قد أحسن استغلال هذه الاستراتيجية باستغلال الاحتمالين فلا يقصي أيّ نوع من المتلقين. وتتسم الاستراتيجية التوجيهية عموما بالتعبير الواضح عن قصد المرسل، إذ لا يحتمل الخطاب غالبًا أكثر من تأويل، ويكمن هذا في كونها تستعمل الأفعال اللغوية الصريحة، كالأمر

والتحذير والنهي والتخصيص والعرض، والنداء والتهديد، والوعيد... الخ إلا أن الخطاب الشعري الصوفي وفي صيغته المباشرة لا يخلو من التلميح والإشارة فهي سمته البارزة لعدة اعتبارات، ولذا نجده في أغلب الأحيان يجنح إلى استغلال استراتيجية أخرى إلى جانب التوجيه والمباشرة وهي الاستراتيجية التلميحية.

**5.3 الاستراتيجية التلميحية:** تنص الأشعار الصوفية بالرمز، وتعدّ الرمزية السمة البارزة فيه فهي من أهم خصائصه "ولا شك في أن طبيعة التجربة الصوفية القائمة على الكشف والدوق قد استدعت هذه اللغة الرمزية الإيحائية البعيدة عن البساطة والوضوح، وقد عدت هذه الصعوبة والخصوصية سببا للجوء الصوفية إلى الرمز والغموض وهناك تفسير آخر يرى أن الصوفية قد عمدوا لاستخدام هذه اللغة الإيحائية ضنا منهم بعلمهم الباطن اللدني الموهوب لهم، وطريق غير طريق العقل أو الشرع. وهذان التفسيران صحيحان مقبولان"<sup>43</sup> فهم بزعمهم ضربوا في عالم ما وراء الحسّ وحاولوا الوصول بقلوبهم إلى ما لا يتسنى للعقل والحواس الوصول إليه فعندهم "العلم ليس منبعه العقل بل النفس، وليس مصدره المعرفة العقلية بل الإلهام النفسي"<sup>44</sup> فاعتبروا أن المعاني التي يدركونها بالكشف والإلهام معان ذوقية يصعب إيصالها باللغة العادية والمعاني السطحية، أي أن الرمز والإيحاء الذي توفّره اللغة الشعرية دليل صدق معرفتهم وعمق تجربتهم. الغرض من استراتيجية التلميح هنا هو "التأدب في الخطاب، إذ يستعملها المرسل مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد"<sup>45</sup> كمراعاة المقام ومكانة المرسل إليه... الخ، فهو يناجي بخطابه الله تعالى، فكلمًا زاد ارتقاء الصوفي في مراتب الكشف كلما ابتعد الخطاب عن المباشرة واتّجه إلى الإشارة والتلميح عن طريق توظيف الرمز أو الكناية أو المجاز حسب السياق، فقد يلجأ المرسل إلى توظيف هذه الأدوات لتدلّ على معنى ظاهر مباشر، ومعان أخرى تظهر من سياق الخطاب، قصد الخروج بالكلام إلى غرض غير ظاهر بدافع من عوامل معينة، يقول الرازي في معرض حديثه عن دواعي استعمال المجاز "إنّ العدول عن الحقيقة إلى المجاز إمّا لأجل اللفظ أو المعنى، أو لهما... وإمّا زيادة البيان... (المعنى) فقد تكون لتقوية حال المذكور، وقد تكون لتقوية الذكر... وأمّا الثاني فهو المجاز الذي يذكر للتأكيد،

وأما تلطيف الكلام فهو أنّ النفس إذا وقفت على تمام الكلام، فلو وقفت على تمام المقصود، لم يبق لها شوق إليه أصلاً، لأنّ تحصيل الحاصل محال، وإن لم يتوقّف على شيء منه أصلاً لم يحصل لها شوق إليه، وأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض، فإنّ القدر المعلوم يشوّقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم فيحصل لها \_ بسبب علمها بالقدر الذي علمته \_ لذّة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة واللذّة إذا حصلت عقب الألم، كانت أقوى، وشعور النفس بها أتمّ<sup>46</sup> فالصوفي يستهدف التأثير على متلقيه من خلال تشويقه ما يدفعه إلى حب اكتشاف طريقتهم وبالتالي لا تشيع أسرارها ومفاهيمهم إلا بين العارفين بخفاياها، إذ لا يفهمها إلا من تدرّج وارتقى عبر مراحل السلوك والكشف وإلى هذا المعنى قصد القشيري في رسالته حين قال: "إنّ لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها انفردوا بها عمّن سواهم وتواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيله على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة (الصوفيّة) يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإخفاء والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها"<sup>47</sup> فبهذه الطريقة يُقبل المتلقي على القراءة بغية كشف الخفي، وقراءة ما وراء الألفاظ من معانٍ وتفصيل. فلو أنّهم لجأوا إلى الصريح من الكلام لوصفوا بالزندقة واتّهموا بالكفر ممن لا ينتمون إلى مذهبهم، ولاستبيح دمهم كما حدث للحلاج الذي اتّهم بالزندقة والإلحاد بسبب غلوه في آرائه حين قال "أنا الحق" وهذا تصريح بالكفر لأنّ الحقّ هو الله تعالى، ومن الشواهد على الكلام السابق قول ابن الفارض:

وعني بالتلويح فهم فــــــــــــــــائق	غني عن التصريح لمتعنت
بها لم يبيح من لم يبيح دمه في ال	إشارة معنى ما العبارة حدث <sup>48</sup>

كذلك من دواعي استعمال هذه الإستراتيجية في الخطاب هو اختصار عدد من الخطابات والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد ليؤدي معنيين، هما المعنى الحرفي والمعنى المستلزم في الآن نفسه "مما يفضي إلى أنّ استدلال المرسل إليه يمر بخطوات



متعددة ليصل إلى قصد المرسل تماما، وذلك بعد أن يدرك أن للفعل اللغوي قوة إنجازية حرفية هي الأولى، وله قوة إنجازية مستلزمة هي الثانية ولكن هذه القوة تصبح في بعض السياقات هي القوة الأولى؛ ولذلك فإنها تصبح قصد المرسل من ملفوظ الخطاب<sup>49</sup> فالشاعر الصوفي ينقل من خلال شعره تجاربه المختلفة التي يعيشها لذا عمد الصوفية في "التعبير عن حبهم الإلهي إلى أفاظ الحب الإنساني وما يتصل به من وصل وهجر ولوعة ونحول، كما عمدوا إلى الخمر وما يتصل بها من حان وأحان وكأس وندمان، وغير ذلك من الأشياء التي توجد في الشعر الغزلي والخمري والذي يعبر عن عاطفة إنسانية نحو معشوقة آدمية، وعن حالة نفسية هي السكر الناشئ من تناول الخمر المستخرجة من الكرم"<sup>50</sup> وفي هذا أمثلة كثيرة مثل ابن العربي الذي ألف ديوانه ترجمان الأشواق "في فتاة أحبها في مكة تسمى نظام ولكته في بطنه في حب الله والفناء فيه."<sup>51</sup> فالقارئ لهذا الشعر يلتمس معنيين مستوى ظاهر هو التغني بالحب الحسي، ومستوى خفي أبعد هو الحب الإلهي ويبقى على المتلقي الكشف عنه عند تأويله للخطاب.

**5.4 إستراتيجية الإقناع:** جاء الشعر الصوفي على ما عهده العرب من شعر الخمرة والغزل والتسبب العذري الهائم في مسارح الجمال، مستعيرا منه أفاظه الجزلة وأساليبه التقليدية، لتألفه القلوب وتطرب إليه الأسماع وتميل إليه النفس إلا أن جوهره مختلف لا يفسر إلا تفسيراً باطنياً حسب زعمهم، فبهذا قد وجهوا الغزل باتجاه راق روحي إضافة إلى ما يمنحه إيقاعه من سمة وظيفية تأثيرية إقناعية، أسهمت في بنائه موسيقى الشعر الخارجية من وزن وقافية في تضافرها مع الوحدات الداخلية، إذ لم تعد القيمة الموسيقية الصوتية للكلمات وصدائها الوظيفة الوحيدة التي تعطي للعمل الإبداعي قيمته الإمتاعية، فمعيار الجمال اليوم تصنعه دينامية الصورة ونشاط العاطفة وتموج الفكر،<sup>52</sup> والشعر الصوفي كأدب فني يعتمد على مختلف الآليات اللغوية للتأثير والإقناع، فهو كتابة إبداعية بحسّ واع وجمال عال، جعلت من الآليات البلاغية سمة بارزة وأداة فاعلة لتوصيف المعنى وتحقيق الأهداف، وكما أدت إلى استمالة عاطفية لإثارة أحاسيس وميول المتلقين لتناسبها وانسجامها مع الخطاب وما يتناوله من الأحوال والمقامات التي يتعرض لها الصوفي وهكذا يصبح المتلقي بذكائه

وخبرته الجمالية والثقافية شريكا فاعلا في إنتاج المعنى بالتأويل والاستنتاج في بحثه عن المقاصد الضمنية والإيحائية خاصة الظواهر البديعية التي يعج بها الشعر الصوفي والتي كانت وليدة عصر ازدهر فيه الشعر الصوفي وبرز عصر قل فيه المقبولون على الشعر نظما وقراءة حيث "انصرفت العناية عن الشعر والاستماع إليه والإثابة عليه. فهاهو الشعب \_ وهو البيئة التي نبت منها الشعراء- جاهل غامض العاطفة غلبت عليه عاميته وشغله السعي إلى الرزق وهاهي ذي حياته ملأى بالحيرة والاضطراب والحوادث العنيفة المفاجئة المتتالية، فلا معين على قول الشعر أو سماعه،"<sup>53</sup> ورغم ذلك فالبنية الشعرية وما تحمله من تشكيل إيقاعي ووظيفة تأثيرية حاجية بإمكانها أن "تحقق هدف المرسل من الخطاب وذلك بالتأثير فيه، فالعناية بالمحسنات البديعية ليست من قبيل الزخرفة اللفظية، أو إبراز قدرات المرسل اللغوية كما يشاع"<sup>54</sup> إنما تقوم فوق ذلك بدور حاجي هدفه "الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد."<sup>55</sup> وإذا كان علم البديع يعرف بأنه "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطابقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة،"<sup>56</sup> فهذا التعريف يبرز اهتمام العرب بالقيمة الحاجية للبديع وبعده التداولي لاهتمامهم بمعطيات خارجة عن النسق الداخلي الشكلي للعبارات، فهذه المعطيات توجه المتكلم لاختيار ما يتلاءم وينسجم مع خطابه. فتؤدي الآليات البديعية وظيفية حاجية تتمثل في إثارة المتلقي واستمالة انتباهه بما توفّره من جمال وزخرف لفظي، فالنفس مجبولة على حب كل ما هو جميل خليق، إلى جانب تأدية المعنى، إذ إن "أساليب البيان"<sup>57</sup> مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها، ليست اصطوانات للتّحسين والبديع وإنما هي أصلا، أساليب للإبلاغ والتبليغ.<sup>58</sup> ومن الحجاج بالمقابلة قول ابن الفارض:

فياقدام رغبة حين يغشا | ك بإحجام رهبة يخشاك<sup>59</sup>

ففي البيت إيضاح للمعنى وتقريب له وإمتاع وإقناع، بالمقابلة بين الإقدام والإحجام وبين الرغبة والرّهبة وبين يغشاك ويخشاك باعتبار أنّ رغبة الإقدام تستلزم الأمن وعدم الخوف، فإن كان الخوف زال الإقدام بإحجام وابتعاد وهو للذهن أقرب فبالأضداد تتضح المعاني، وللنفس أفتن وأمتع إذ زاد الكلام رونقا وحسنا من خلال إبراز المعاني اللفظية وإعطاء الكلام جرسا موسيقيا من خلال التقابل.

ومن ذلك قول الشاعر عبد القادر الجيلاني:

إلهي قد أنيت بباب عفوك سائلا مع ذلتي والدمع مني سائلا<sup>60</sup>

قد أحدث الجناس التام بين ( سائلا/ وسائلا) توافقا وانسجاما نغميا نجم عن تردّد الأصوات تطرب له الأذان، مع اختلافهما في المعنى فالأولى في صدر البيت تعني السؤال في حين تعني الثانية من عجزه السيلان أي ذرف الدموع، مع ملاءمتها للسياق واشتراكهما في بيان المعنى الكلي للبيت وتوضيحه حيث تناسب موقف سؤال الله مع حالة الشاعر الخاضعة المتوسّلة الظاهرة من سيلان الدموع، فكان الموقف أبين وأظهر والمعنى أوضح وأبلغ وأشدّ أثرا على المتلقي، هذا مع تضافر الآليات اللغوية الأخرى المتمثلة في الروابط المنطقية (قد) أفادت التوكيد وتحقيق الفعل ( مع واو الحال) بين كلاهما مصاحبة فعل السؤال للذلة وسيلان الدموع.



6. **خاتمة:** توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

- لجأ الصوفيون في خطابهم إلى الشعر عامة وشعر الغزل والنسيب خاصة؛ للتعبير عن وجدانهم، لما توفّره لغة الشعر من آفاق التعبير عن العاطفة والوجدان بألفاظ جزلة وأساليب زائفة ومعان رقيقة وإيقاع شجي وألحان عذبة، تشق طريقها بلا عناء إلى قلب المتلقي، فهي لغة خاصة لغة المجاز والرمز لا لغة التصريح والوضوح، تمنح الشاعر إمكانية قول ما لم يتمكن من قوله باللغة الصريحة العادية ليعبر عن كل ما هو مادّي ومجرّد؛ عن حقائق باطنة؛ عن مكنونات النفس وخلقاتها؛

- استطاع الصوفيون بمختلف آليات البلاغة نقل أفكارهم وطريقتهم في التصوّف وحماية أنفسهم من التهم مثل الرندقة والإلحاد التي وجهت لهم، كما تساعد ضروب

البلاغة المبنوثة في ثنايا الشعر الصوفي على استمالة المتلقي وإثارة فضوله للكشف عن المعاني الباطنية البعيدة، وعليه ضرورة الاطلاع على التصوف وطرقه ومفاهيمه، ومن هنا يجد الصوفي الفرصة لتوجيه المتلقي وإقناعه بتوظيف اللغة وأدواتها المختلفة ليحصل على الأثر الإيجابي؛

- يحمل الشعر الصوفي في طياته الكثير من المخالفات الشرعية بل ويصل به الحال إلى الخروج عن دائرة الإسلام؛

- تخالف أفعال الصوفي أقواله الداعية إلى الزهد في الحياة الدنيا في حين يتخيرون أحلى الأطعمة ويقيمون الولائم والموائد التي كلها لهو وطرب؛

- حب الصوفي لله عز وجل هو حب هوى وزندقة وليس حبا شرعيا لأن حب الله إنما يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛

- يعتمد الصوفية في نشر مذاهبهم بطرق مختلفة وسبل ملتوية منها ما يتعلق باللغة كالشعر وفنونه ومنها ما يتعلق بتصرفاتهم الأخلاقية الذميمة كالكذب والتدليس وشراء الذمم.

هذا بعض ما توقفنا عليه والكتب عن الصوفية كثيرة منها ما ينتصر لهم ومنها من هاجمهم وكشف حقيقتهم أمثال ابن القيم عبد الرحمن بن الجوزية في كتابه "تلبيس إبليس".

#### 7. قائمة المراجع:

- إبراهيم محمّد منصور، الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، (دط، 1995).

- ابن الفارض أبو حفص، ديوان ابن الفارض، دار صادر، (بيروت 1382هـ / 1962م).  
ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر، ط3، 1416هـ)، ج1.

- ابن عربي محي الدين؛

• ترجمان الأشواق، دار صادر، اعتنى به عبد الرحمن مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، (لبنان، ط1، 1425هـ / 2005م).

- الديوان الكبير، تقديم وتعليق: محمد ركاوي بن الرشيدي، دار ركاوي للنشر والتوزيع، (القاهرة، ط1، 1994م).
- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل الأنصاري لسان العرب، دار المعارف، (القاهرة، دط، 1119هـ).
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: يحيى الشامي، د.ت، دار مكتبة الهلال، (بيروت، ط2، 1412هـ/1992م).
- آمنة بلعلی، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (تيزي وزو، دط، 2009م).
- الجرجاني عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، دلائل الإعجاز في علوم المعاني، تح: محمود شاكر محمد، مطبعة المدني (السعودية، دط 1992م).
- جماعة من كبار اللغويين العرب، "المعجم العربي الأساس"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم توزيع لاروس، (1989).
- الحلاج الحسين بن منصور، الديوان، تح: كامل مصطفى الشبيبي، وزارة الإعلام، (العراق، دط، 1974م).
- حمادة بيسوني إبراهيم، وسائل الإعلام والسياسة دراسة في ترتيب الأولويات مكتبة نهضة الشرق، (القاهرة، دط، 1996م).
- الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد، الإيضاح في علوم البلاغة تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (لبنان ط3، 1971م).
- درويش الجندي، الرمز والرمزية في الأدب العربي، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، (القاهرة، د.ت).
- الرزاي فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي المحصول في علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان ط1، 1420هـ/1999م)، ج1.
- سليم، محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، (مصر، دط، 1377هـ/1905م).
- طه عبد الرحمن، اللسان الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، (المغرب، دط، 1998م).
- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ط3، 1983م).
- عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التحول قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، موفم للنشر، (الجزائر، دط، 2008م).
- عبد الله خضر حمد، شعرية الخطاب الصوفي ديوان عبد القادر الجيلاني أنموذجا، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، (الأردن، ط1، 2016م).

- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية دار الكتاب الجديد المتحدة، (بيروت، ط1، 2004).
- علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، (القاهرة، دط، 1404هـ).
- محمّد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب (لقاهرة، دط، دت).
- محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العلمية للنشر والتوزيع، (الهرم، دط، 2003م).
- منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي، النظريات والوظائف والتأثيرات، دار النشر للجامعات، (القاهرة، دط، 2006م).
- المهدي ابراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري بنغازي، (ليبيا، دط، 2011م).
- نعيمة زواخ، البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة، مؤسسة كنوز الحكمة، (الجزائر، ط1، 2012م/ 1433هـ).
- الوصيفي أبو عبد الرحمن علي، موازنة الصوفية في ضوء الكتاب والسنة دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، (الإسكندرية، دط، 2001م).

### 8. هوامش:

- (<sup>1</sup>) ابن منظور جمال الدين محمّد بن مكرم بن علي أبو الفضل الأنصاري، لسان العرب دار المعارف، القاهرة، دط، 1119هـ، ص 1194.
- (<sup>2</sup>) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص 45.
- (<sup>3</sup>) المرجع نفسه، ص 47.
- (<sup>4</sup>) ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1416هـ، ج1، ص 43.
- (<sup>5</sup>) جماعة من كبار اللغويين العرب، "المعجم العربي الأساس"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم توزيع لاروس، 1989، ص112.
- (<sup>6</sup>) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: يحيى الشامي، دت، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1412هـ/1992م، ص 51.
- (<sup>7</sup>) ينظر: عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1983م، ص53.
- (<sup>8</sup>) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 55 وما بعدها.
- (<sup>9</sup>) المهدي ابراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي ليبيا، دط، 2011م، ص 14، 15.

- (10) عبد الله خضر حمد، شعرية الخطاب الصوفي ديوان عبد القادر الجيلاني أنموذجاً عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016م، ص65.
- (11) حمادة بيسوني إبراهيم، وسائل الإعلام والسياسة دراسة في ترتيب الأولويات، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، دط، 1996م، ص 220، 221.
- (12) منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي، النظريات والوظائف والتأثيرات دار النشر للجامعات، القاهرة، دط، 2006م، ص 81.
- (13) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 49.
- (14) المرجع نفسه، ص 72.
- (15) المرجع نفسه، ص 89، 90.
- (16) ابن العربي محي الدين، الديوان الكبير، تقديم وتعليق: محمد ركابي بن الرشيدي، دار ركابي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1994م، ص 68.
- (17) الجرجاني عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، دلائل الإعجاز في علوم المعاني، تح: محمود شاكر محمد، مطبعة المدني، السعودية، دط، 1992م، ص 262.
- (18) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 117.
- (19) المرجع نفسه، ص 118.
- (20) علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف القاهرة دط، 1404هـ، ص 85.
- (21) المرجع نفسه، ص 85.
- (22) المرجع نفسه، ص 149.
- (23) المرجع نفسه، ص 150، 151.
- (24) محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العلمية للنشر والتوزيع، الهرم، دط، 2003م، ص 234.
- (25) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 257.
- (26) المرجع نفسه، ص 257.
- (27) المرجع نفسه، ص 259.
- (28) طه عبد الرحمن، اللسان الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1998م، ص 215.
- (29) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 267.
- (30) المرجع نفسه، ص 268، 269.
- (31) المرجع نفسه، ص 292.

- (32) الوصيفي أبو عبد الرحمن علي، موازنة الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، دط، 2001م، ص 32.
- (33) الحلاج الحسين بن منصور، الديوان، تح: كامل مصطفى الشبيبي، وزارة الإعلام العراق، دط، 1974م، ص 55.
- (34) آمنة بلعلی، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي \_ وزو، دط، 2009م، ص 28.
- (35) عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 359.
- (36) عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التحول قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2008م، ص 261.
- (37) آمنة بلعلی، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص 32.
- (38) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 322.
- (39) ابن الفارض أبو حفص، ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، 1382هـ / 1962م ص 134.
- (40) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 325.
- (41) المرجع نفسه، ص 325.
- (42) المرجع نفسه، ص 323، 324.
- (43) إبراهيم محمد منصور، الشعر والنصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر دار الأمين للنشر والتوزيع، دط، 1995، ص 55، 56.
- (44) محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، القاهرة، دط، ص 176.
- (45) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 371.
- (46) الرازي فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي المحصول في علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م ج1، ص 125.
- (47) علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص 155، 156.
- (48) ابن الفارض عمر، ديوان ابن الفارض، ص 83.
- (49) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 384.
- (50) درويش الجندي، الرمز والرمزية في الأدب العربي، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص 342.
- (51) ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر، اعتنى به عبد الرحمن مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ / 2005م، ص 9.
- (52) نعيمة زواخ، البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012م / 1433هـ، ص 18.



- (<sup>53</sup>) سليم محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، مصر، دط، 1377هـ/1905م، ص 60.
- (<sup>54</sup>) عبد الهادي بن ظافر الشَّهري، استراتيجيات الخطاب، ص 48.
- (<sup>55</sup>) المرجع نفسه، ص 498.
- (<sup>56</sup>) الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط3، 1971م، ص 163.
- (<sup>57</sup>) \* هكذا ذكرت في المرجع.
- (<sup>58</sup>) عبد الهادي بن ظافر الشَّهري، استراتيجيات الخطاب، ص 498.
- (<sup>59</sup>) ابن الفارض عمر، ديوان ابن الفارض، ص 157.
- (<sup>60</sup>) عبد الله خضر حمد، شعريّة الخطاب الصّوفي، ديوان عبد القادر الجيلاني أنموذجا ص 273.